

كلوديا مارتينيز مانسيل*

كيف تتجول في مخيم للاجئين**



مدخل مخيم برج الشمالي، وهو مخيم للاجئين الفلسطينيين في الجنوب اللبناني (الصور بعدسة المؤلفة).

* ناشطة حقوقية وباحثة مستقلة عملت لأكثر من ١٠ أعوام مع الأمم المتحدة، وزارت مخيم برج الشمالي في سنة ١٩٩٨، كمتطوعة في مركز التدريب المهني في المخيم.

** المصدر:

Claudia Martinez Mancil, "Camp Code: How to Navigate a Refugee Settlement", *Places Journal* (April 2016), <https://placesjournal.org/article/camp-code/#0>

ومنهجية هذه المقالة وفق الكاتبة، مقتبسة بتصريف من منهجية كتاب: Anne Mikoleit and Moritz Pürckhauer, *Urban Code: 100 Lessons for Understanding the City* (Cambridge Mass.: MIT Press, 2001).

وتقول الكاتبة أنها مدينة في إنجاز المقالة لمحادثات طويلة أجرتها مع محمود الجمعة "أبو وسيم"، ومع كثيرين في برج الشمالي الذين رحبوا بها طوال أعوام في منازلهم. وهي تعرب عن خالص شكرها لقراء الإصدارات السابقة من هذه المقالة، وخصوصاً ريتشارد ويتمان، وماريان بوتفين، وروز ماري صايغ، وحسن إسماعيل الشيخ، وأنتولين مارتينيز دي فروتوس.

مخيم برج الشمالي الواقع شرقي مدينة صور، هو أحد مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الصغيرة، لكنه معروف بتداخله مع محيطه اللبناني، وهو يقع أساساً في منطقة زراعية، وكثيراً ما عمل سكانه في هذا القطاع. وكان المخيم يتغير وفقاً للمتغيرات السياسية الميدانية، وخصوصاً الديموغرافية والاقتصادية، ومداخله ومخارجه كلها أغلقت أمام السيارات، ولم يُفتح إلا مدخل واحد ثُبَّت عنده حاجز للجيش اللبناني، بينما يستطيع المشاة أن يعبروا من دون أي رقابة من المداخل التي وُضعت عليها ألواح كونكريتية.

فالمخيمات القديمة التي كانت تُعتبر موقّعة، أصبحت موطناً للجيلين الثالث والرابع من اللاجئين، وهي ليست مخيمات من الخيام، بل مساحات مزدحمة من الأسمنت والأسفلت. إنها تجسيد حضري لحالة طوارئ مستمرة.^٣ ما الذي يجري داخل مخيم للاجئين؟ وكيف يتم تنظيمه مكانياً ومادياً؟^٤ لأخذ صورة مختصرة، أدعو القراء إلى التجول في مخيم برج الشمالي للاجئين الفلسطينيين. يقع المخيم على تلة مرتفعة في الجنوب اللبناني، تطل على مدينة صور على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد بُني كمخيم موقت في سنة ١٩٥٥، لكنه أصبح الآن "مدينة" عشوائية مزدحمة تبلغ مساحتها ١٣٥,٠٠٠ م^٢، ويقطنها ٢٣,٠٠٠ لاجئ مسجل.^٥ والمخيم يتداخل مع بلدة برج الشمالي التي يحمل اسمها، حتى إن من السهل أن تمر بجانبه فتظن أنه حي فقير من أحياء تلك البلدة، وأنه ليس المخيم.

وعلى الرغم من مضي ٧ عقود على تأسيس المخيم، فإن الفرق لا يزال غير واضح بين ما يُفترض أن يكون موقّعاً، وما يُفترض أنه دائم.^٦

لنبدأ بما هو واضح: مخيمات اللاجئين ليست متشابهة كلها، وتجربة ما يقارب ٦٠ مليون نسمة [من اللاجئين في العالم] لا يمكن تعميمها، لأنه وفقاً لإحصاءات الأمم المتحدة، فإن معدل عدد اللاجئين نسبة إلى عدد سكان العالم، يبلغ واحداً لكل ١٢٢ فرداً.^١ يعيش اللاجئون في مآوٍ محصورة، وفي خيام وحاولات للشحن، أو في مباني أسمنتية في مخيمات رسمية تديرها الأمم المتحدة، أو في مخيمات موقّعة على أطراف المدن. إنهم لاجئون أو طالبو لجوء أو عديمو الجنسية أو نازحون، وأعدادهم في تزايد مستمر في أنحاء العالم كافة.

إن مسألة اللاجئين في لبنان أزمة (أو بالأحرى سلسلة من الأزمات) مستمرة منذ سنة ١٩٤٨، فهناك أكثر من مليون سوري و٤٥٠,٠٠٠ فلسطيني [المستخرجون من الإحصاء الذي أنجزته لجنة الحوار اللبناني - الفلسطيني في نهاية سنة ٢٠١٧، أظهرت أن عدد اللاجئين الفلسطينيين في تناقص مربع بحيث لم يعد عددهم يزيد على ١٧٥,٠٠٠] يعيشون في ١٢ مخيماً رسمياً، وفي المئات من التجمعات السكنية غير الرسمية.^٢



حاجز للجيش اللبناني عند مدخل المخيم.

حاجز التفتيش عند مدخل المخيم

يستوقفك في البداية حاجز للجيش اللبناني في الشارع الرئيسي لمدخل المخيم، فالأجانب يحتاجون إلى تصريح من الاستخبارات العسكرية اللبنانية لدخول المخيم، والحصول عليه يستغرق بضعة أيام. ويُعتبر نظام التصاريح لدخول المخيم [بالنسبة إلى السلطات الأمنية اللبنانية] رادعاً للغرباء الفضوليين، كما أنه يساعد السلطات اللبنانية على مراقبة سكان المخيم، ويزيد من الشعور بأنه أشبه بسجن في الهواء الطلق، ذلك بأن الرقابة المشددة على الدخول إليه لا تشجع الأصدقاء والأقرباء على الزيارة، وتُذكر اللاجئين دائماً بأن حياتهم ليست ملكاً لهم.

أمّا الخروج من المخيم فأكثر سهولة، وليس هناك رقابة عليه غير إشارة من يد جندي. لكن الظروف على الحاجز متقلبة ومتغيرة: فقد تكون الرقابة مشددة أو متساهلة، اعتماداً على الأحداث الجارية، وعلى مزاج عناصر الحاجز. وعلى بعد ٥٠ متراً في الشارع نفسه يوجد حاجز آخر تسيطر عليه حركة "فتح"، ويقف عنده مقاتل فلسطيني متأهب يحمل بندقية، بينما يجلس بالقرب منه رجال في منتصف العمر على مقاعد بلاستيكة بيضاء يشربون القهوة ويتحدثون في السياسة. وهم لا يطلبون منك أوراقاً ثبوتية، بل إن كل ما قد يبدّر منهم هو مجرد نظرة حادة. ويُعتبر برج الشمالي من أكثر المخيمات الفلسطينية هدوءاً في لبنان.



مدخل غير رسمي للمشاة.

عبور الحدود

إذا لم تكن تملك تصريحاً، فإنه يظل في وسعك الدخول إلى المخيم، فهناك ٥ مداخل غير رسمية هي عبارة عن شوارع قروية قديمة محاطة بكتل أسمنتية تسمح للمشاة بالعبور، لكنها لا تسمح بعبور المركبات. إن شكل المخيم غير منتظم، وذلك وفقاً لحدود قطعة الأرض التي استأجرتها الحكومة اللبنانية لـ ٩٩ عاماً، وضمن هذه الحدود تعمل وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا) على تقديم الخدمات للاجئين منذ سنة ١٩٥٥.

عندما تعبر هذه الحدود تجد نفسك في منطقة تتجاوز جميع النظم الحضرية،^٧ فالشوارع التي شُقت من دون تخطيط،

والبنايات العشوائية، تعلن أن المكان استثناء قانوني، خارج عن أنظمة وقوانين البناء، حيث حالة الطوارئ هي العرف الطبيعي.^٨ وفي كل زاوية في المخيم ترى ما يذكرك بالصراع العربي - الإسرائيلي: شعارات ورسومات سياسية على الجدران؛ ملصقات تحمل صور شهداء سقطوا في المعارك؛ لوحات لقبة الصخرة، ولمفاتيح بيوت ترمز إلى الأملاك التي تركها اللاجئون وراءهم في فلسطين.

المخيم غير محاط بجدار، بل إن عمليات البناء فيه تصل أحياناً إلى الحواجز الأسمنتية في الشارع. وعلى حدود المخيم الشمالية والشرقية، يوجد خلف حاجز من الأسلاك الشائكة أشجار البرتقال ومزارع الموز الخضراء.



لوحة جدارية تبين الخريطة والمفتاح.

لا تبحث عن خريطة

غالباً ما تتخذ المخيمات على خرائط لبنان العامة - أكانت ورقية أم في الإنترنت - شكل بقع رمادية اللون، من دون أي تفاصيل عن شوارع المخيم. وهناك بعض الخرائط المفيدة والجيدة لمخيم برج الشمالي، لكنها خرائط يحتفظ بها، وبشكل أمني مشدد، بعض المنظمات الدولية التي تعتبر نشر وتداول مثل هذه الخرائط والمعلومات خطراً أمنياً، الأمر الذي يفسر جزئياً هذا النمو غير المخطط له. أن تعيش من دون خريطة يعني أن وجودك لا مستقبل له، في حيز مجهول لا مكان له على الخريطة. أما خريطة فلسطين التاريخية، فموجودة في كل مكان: على الأعلام واللافتات، وعلى الجدران وسلاسل المفاتيح والقمصان.^٩

ليس هناك طرق وشوارع، ولا حتى أزقة واضحة، فالمنطقة المرتفعة التي بُني عليها المخيم هي التي تساعدك على معرفة

الاتجاهات، لكن من السهل أن تضل طريقك في هذه المتاهة من الأزقة (ولا سيما إذا ما قارناً ذلك بالمخيمين القريبين الرشيدية والبص، اللذين بُنوا في ثلاثينيات القرن الماضي لإيواء اللاجئين الأرمن، وعمل الفرنسيون على تخطيط بنائهما). وينقسم المخيم بشكل غير رسمي إلى أحياء وحارات تتخذ أسماء قرى زراعية في منطقتي صنف وطبرية في فلسطين، فاللاجئون عندما وصلوا إلى المخيم كانوا قد جاؤوا ضمن مجموعات مع لاجئين آخرين من القرية نفسها واستقروا معاً.^{١٠}

وما زال سكان المخيم حتى يومنا هذا يستخدمون أسماء أماكن ومعالم في قراهم الأصلية عندما يرشدونك إلى الاتجاهات داخل المخيم. وهذه الطريقة في التنقل والتجول في المخيم، تعتمد على ذاكرة جماعية للمكان، تعرفها حتى الأجيال الشابة التي لم تعرف الأماكن والمعالم المرجعية في القرى الأصلية.



شارع رئيسي في مخيم برج الشمالي.



سوق للفواكه عند مدخل المخيم.

صور، أو العمل بصورة غير قانونية خارج المخيم. ويعتمد العديد من الأسر على معونات مالية تصلها من أقارب يعملون في الخارج، في حين أن كثيرين من الشباب يحلمون بالهجرة، وأكثر الأحاديث المتداولة هي عن طرق الهجرة وتكاليفها، ومن هي مجموعات المافيا التي يمكن الثقة بها في هذا المجال، فالجميع هنا يروي القصص عن أولئك الذين نجحوا في الوصول إلى أوروبا.

وعلى غرار العديد من مخيمات اللاجئين، فإن مخيم برج الشمالي يقع على مقربة من مجمع ومركز للمواصلات وحدود دولية. وهذا الإحساس بالحركة والتنقل يتناقض مع حظرهما المفروض على سكان المخيم، ومع ذلك، فإن لديهم نظام تنقل عام يلبي حاجاتهم. فبعض سيارات المرسيدس القديمة والبالية يعمل كسيارات أجرة مشتركة تقدم خدمة المواصلات في طرق محددة وثابتة، في مقابل أجرة زهيدة، بينما تعمل سيارات شحن، أكبر حجماً، ومحملة بعبوات بلاستيكية، على نقل عمال قطف الفاكهة إلى الحقول والبساتين الزراعية قرب مدينة صور. فهي تنقل إلى العمل في الخامسة صباحاً رجالاً ونساء من مختلف الأعمار، ليعودوا عند منتصف النهار. ويكسب العامل ما يقارب ١٠ دولارات في اليوم، أو هكذا كان على الأقل قبل قدوم اللاجئين السوريين الذين تسبب قدومهم بتخفيض أجور العمال. ويُعتبر مخيم برج الشمالي الأفقر في لبنان، ونحو ثلثي سكانه يعملان في الزراعة، كما يعمل الكبار في السن الذين لا معيل لهم، ولا راتب يعتاشون منه، في الحقول أيضاً ما داموا قادرين جسدياً على ذلك.

وتحافظ على هذه الذاكرة الجماعية مجموعات مثل جمعية الحولة التي تشرف على المكتبة الرئيسية في المخيم، والتي اتخذت اسمها من بحيرة في فلسطين كانت تقع على ضفافها العديد من القرى الفلسطينية القديمة (وهي تسمى الآن محمية وادي الحولة الطبيعية في إسرائيل). وتهدف هذه الجمعية إلى إعادة ربط المجتمع المحلي بترائه، وتعزيز قيم المجتمع المدني فيه، وقد جرى مؤخراً وضع إشارات على بيوت المخيم تحكي تفاصيل عن قرى السكان الأصلية.

مفترق الطرق

ما إن تتجاوز مدخل المخيم حتى تصل إلى مفترق الطرق الرئيسي فيه، وهو بمثابة ميدان عام للمخيم، فهنا تجد رجالاً في انتظار فرصة للعمل، أو في انتظار حدث ما، وحولهم يسير الناس والمركبات في الاتجاهات كافة. وهو أيضاً بمثابة مستودع للمنتجات الغذائية في الهواء الطلق، إذ تتراكم فيه صناديق الثمار والمحاصيل والبيض، وسط الرجال الذين يراقبون بتمعن وحذر، كما أن المقاهي والشوارع هنا تضج بالنشاط على مدار الساعة.

وتُعتبر نسبة البطالة في المخيم مرتفعة جداً (تصل إلى نحو ٦٠٪)، لأن الحكومة اللبنانية تمنع اللاجئين الفلسطينيين من العمل في كثير من المهن الرئيسية، كالطب والهندسة والمحاماة، بينما فرص العمل الرئيسية المتوفرة هنا هي العمالة الموسمية بالمياومة في الحقول الزراعية حول مدينة



بنايات لا يفصل بعضها عن بعض غير مسافة متر أو مترين.



فسحات من الأرض في متاهة الأزقة.

حصص من الأرض وبيوت

ما إن تبتعد قليلاً عن الشوارع الرئيسية القليلة حتى تجد نفسك في متاهة من الأزقة المظلمة، بحيث إنك إذا مددت ذراعيك فستجد نفسك تلمس المنازل على جانبي الزقاق. أما من الأعلى فيبدو المخيم مثل خلية نحل، أو مثل مدينة إسلامية من العصور الوسطى،^{١١} فالبيوت رطبة لا يصلها إلا قليل من أشعة الشمس. لكن ثمة ميزة لهذه الكثافة غير المخطط لها، فالبنائات القريبة من بعضها تشكل مناطق مظلمة في الصيف، وتحتجز الحرارة في الشتاء، كما أن الأزقة تولد إحساساً بالانسجام والألفة في المجتمع؛ فعند مرورك منها لا تستطيع إلا أن تسمع الأحاديث وأصوات الموسيقى والتلفزيون تنبعث من داخل البيوت. ومع هذه الألفة الاجتماعية هناك إحساس قوي بالانضباط الاجتماعي. وفي أثناء تجولك في المخيم ستلاحظ اختلافاً كبيراً في مساحات حصص الأرض، الأمر الذي يعكس المساحات المتنوعة التي خُصصت للخيام في سنة ١٩٥٦. فقد كانت تخصص لأسر اللاجئين خيام بمقاسات متنوعة، وفقاً لحجم الأسرة التي كانت تتراوح ما بين ٢ و ٨ أفراد، كما أن بعض سكان المخيم استطاع الحصول على قطع كبيرة من الأرض لزراعة النباتات وتربية المواشي، في حين قبل البعض الآخر بمساحة صغيرة؛ فالجميع كان يعتقد أن المخيم مؤقت.

لم تكن الخيام توفر للناس سبل الخصوصية، ولا مساحات إضافية للأسر المتزايدة، ولم تكن تؤمن لهم إلا قليلاً من الحماية في الشتاء القارس. لكنها استمرت لأجيال، لأن السلطات اللبنانية مارست على اللاجئين ضوابط مشددة فيما يتعلق بالبناء.

وكانت المراحيض والحمامات في المخيم مشتركة، بل إنه حتى سنة ١٩٦٨ لم يكن هناك مطابخ في الخيام، وإنما كانت الأونروا توزع وجبات الطعام يومياً على اللاجئين. وفي ستينيات القرن الماضي بدأت أبنية أكثر ثباتاً تحل محل الخيام، فكان يجري تقوية الجدران باستخدام الحجارة، ثم بعد ذلك بالأسمنت، لكن أسقف الزنك الموقته ظلت تُستخدم أعواماً طويلة بعد ذلك، في إشارة إلى أن هذه البيوت موقته.

البيوت الحجرية التي بقيت قائمة هي الأقدم في المخيم، وما زالت أسقف البعض منها من الزنك القديم، في إشارة إلى أن سكانها فقراء. وتتركز معظم البيوت الحجرية في حي يسمى "المغاربة"، وهو الحي الوحيد الذي لا يشير اسمه إلى قرية أصلية، وإنما إلى الأصل الشمال أفريقي لسكانه الذين هاجر أجدادهم إلى فلسطين التاريخية في إبان الحكم العثماني.

في ثمانينيات القرن الماضي، صمد المخيم في أثناء الحرب الأهلية اللبنانية والقصف الإسرائيلي، وقد تمكّن اللاجئون، في معظمهم، من إعادة بناء بيوتهم فيما بعد بالطوب الأسمنتي كما نراها اليوم، جرّاء تدفق المال عليهم من فلسطيني الشتات. وتبع ذلك في التسعينيات حركة بناء غير رسمية مزدهرة في المخيم، إذ استثمر فلسطينيو الشتات بعض أموالهم لتحسين منازل أقاربهم، أو لبناء منازل خاصة لهم في المخيم عندما يعودون إليه.^{١٢} وبعض بيوت الطوب غُطي بطبقة من الأسمنت، وهو غير مطلي، وضائع في بحر رمادي اللون، لكن جدران الشارع الرئيسي في المخيم طُليت مؤخراً ببعض الألوان الزاهية لتقوية

كي تتمكن الأجيال المقبلة من إضافة طبقات جديدة للبناء.

أما أعلى البنايات في المخيم فتصل إلى ٨ طبقات، وقد بناها مستثمرون لتأجير شققها. ويُعتبر مخيم برج الشمالي أقل كثافة سكانية من بقية مخيمات لبنان، كما أن الحقول المفتوحة الواسعة في محيطه تجعلك تشعر بأنك في منطقة ريفية. ومع ذلك، فإن هذا النمط من البناء هو الذي جعل المخيمات الفلسطينية من أكثر المناطق الحضرية كثافة سكانية في العالم.^{١٣}

الإحساس بالكبرياء المحلي وتعزيزه. يمكنك معرفة كثير عن أي أسرة من خلال مدى ارتفاع بيتها، فقد جرى تجميد تخصيص الأراضي منذ سنة ١٩٤٨، على الرغم من أن بعض الأسر تضاعف حجمه ثلاث مرات، بينما غادرت أسر أخرى المخيم. والاتجاه الوحيد للتوسع في المخيم هو إلى الأعلى، فمعظم البنايات في المخيم يتكون من ٣ إلى ٤ طبقات، إذ يقطن الأبناء وأسرهم في الطبقات العليا فوق منازل آبائهم. وتبقى أعمدة الأسمنت مكشوفة على أسطح البنايات،



الكثافة السكانية في مخيم برج الشمالي.



بيوت عشوائية بُني بعضها فوق بعض.



بيت في انتظار بناء طبقة أخرى.

تعقيدات الملكية

لا يُسمح للفلسطينيين في لبنان بامتلاك عقار، وليس هناك آلية لتسجيل ملكيتهم لبيوتهم لدى الدولة، ولهذا، ابتكرت المخيمات الفلسطينية أنظمتها الخاصة بالحق القانوني للملكية، وهو حق مصان. لكن وثائق هذا الحق تضمن للفلسطيني ملكية البناء فقط، وليس ملكية الأرض المستأجرة التي أقيم عليها. فالبناء في المخيم يُعتبر غير قانوني، وكذلك إدخال مواد البناء إليه، بحيث يُضطر البناؤون إلى دفع رشوات كبيرة لإدخالها. وكان من أثر هذا الحظر ارتفاع أسعار البيوت في المخيم، والتي هي أعلى سعراً من بيوت البلدة المجاورة، كما أن إصلاح البيوت وصيانتها عملية مكلفة، وهناك كثير من بيوت المخيم في حالة رثّة. وفي المقابل فإن استئجار أماكن السكن

في البلدة المجاورة غير مكلف، وبعض اللاجئين يتطلع إلى تحسين ظروف سكنه، وذلك بالانتقال إلى العيش خارج المخيم. ويقطن الشقق في البلدة المجاورة فلسطينيون من الطبقة الوسطى: أطباء وممرضون ومعلمون وإداريون، ممّن يستطيعون السكن في بيوت أفضل، لكنهم يرغبون في البقاء بالقرب من مجتمعهم، وفي الاستفادة من خدمات الإغاثة التي تقدمها "الأونروا"، كالصحة والتعليم، الأمر الذي يتسبب بكساد البيوت المعروضة للإيجار في المخيم، وانخفاض أسعار الإيجار فيه. وقد أدى انخفاض الأسعار هذا إلى استقطاب المخيم للاجئين السوريين الفارين من الحرب في سورية، حتى إن المخيمات الفلسطينية في بيروت أيضاً باتت تستقطب الفقراء من اللاجئين من بعض الدول مثل بنغلادش وإثيوبيا والفلبين.



أفصاص طيور معلقة خارج بيت.



متجر ألعاب.

الصغار والكبار والطيور

تشاهد في المخيم كثيراً من الأطفال، فأكثر من نصف سكان المخيم هم دون عمر الثامنة عشرة.^{١٤} ويمكن تلمس ذلك عندما ينتهي دوام المدرسة، إذ يخرج الأطفال للعب في الأزقة، بألعاب يبتكرونها باستخدام العصي والدواليب البلاستيكية، وكل ما تقع عليه أياديهم. أمّا الكبار فيُخرجون المقاعد البلاستيكية إلى الشارع ويجلسون تحت أقفاص الطيور المعلقة على جدران المنازل. وبسبب ضيق المكان، وعدم توفر حيّز للحيوانات الأليفة، فإن الطيور الصغيرة تُعتبر الحيوانات الأليفة المفضلة في المخيم، وغالباً ما يتم الاحتفاظ بها في أقفاص عند مداخل البيوت.

ومع غروب الشمس في الصيف، تصبح

سماء المخيم مفعمة بالحياة والنشاط، إذ تبدأ عائلات ومجموعات من النساء بتبادل الزيارات على أسطح المنازل هرباً من الجو الحار، ومن الشوارع الضيقة الخائفة، بينما يحلق الحمام واليمام في سماء المخيم محدثين هرجاً واهتياجاً كبيرين. وتُعتبر تربية الطيور الهواية المفضلة لدى الشباب في المخيم، ففي أوقات متأخرة من بعد ظهر أيام عطل نهاية الأسبوع، يمكنك سماع صفير الشباب وهم يوجهون أسراب طيورهم. ويقول الآباء إنه مع ارتفاع نسبة البطالة في المخيم، فإن هذه الهواية تُبعد أولادهم عن المتاعب، وتساعدهم في تأمين القليل من الدخل من جانب آخر. فالفرخ الصغير من الحمام يباع بنحو ١٠ دولارات، بينما تصل أسعار بعض الأنواع الأخرى من الطيور إلى ٥٠ دولاراً للطير الواحد.



أسطح المنازل في المخيم، ويبدو ظاهراً في الأفق خزان المياه الذي بنته الأونروا.

مساحة خضراء

لم يشهد مخيم برج الشمالي أي تخطيط لحداثق أو ميادين عامة منذ نشأته، والشوارع الضيقة هي على الأغلب الأماكن العامة الوحيدة في المخيم. فالأشجار المتناثرة تناضل لتصلها أشعة الشمس، ولهذا تعمل منظمات محلية على تنظيم رحلات للأطفال إلى شاطئ البحر، والحداثق العامة في مدينة صور، كي تمنحهم قليلاً من الحرية للترفيه عن أنفسهم في اللعب والاستكشاف. لكن عمّا قريب سيصبح لمخيم برج

الشمالي حديقته الصغيرة الخاصة. فمنظمات المجتمع المحلي تحاول منذ وقت طويل أن تحصل على مساحة من الأرض من شبكة معقدة من أصحاب "الملكية" الخاصة، وقد تمكنت أخيراً من النجاح في تحقيق ذلك.^{١٥} فوسط المخيم يوجد منزل حجري مهجور في حديقته شجرة زيتون جميلة، وصاحب هذا المنزل - وهو عضو سابق في الحزب الشيوعي الفلسطيني - وكان قد هاجر منذ وقت طويل، وافق على فتح المنزل أمام المجتمع المحلي، ليكون أول حديقة عامة خضراء في المخيم.



متجر لبيع النثریات المتفرقة (دكان).



مخبز.

مخابز وسجائر وبضائع مهربة

هناك مطعم واحد يمكن الجلوس فيه لتناول الطعام في المخيم، وهو يقدم أطباق الحمص والفول، كما أن هناك بعض المحلات لبيع الفلافل. أمّا المخابز فمتوفرة بشكل كبير، وواحد منها يستطيع إنتاج قرابة ألف "منقوشة" زعتر يومياً، بينما تُعتبر المناقيش بالجبين أو اللحم المفروم بدائل أكثر ثمناً. في يومي الجمعة والسبت تُحضر النساء إلى المخبز المكونات والمواد اللازمة لتضاف

إلى العجين، ويكون ذلك مناسبة لتذكّر تلك الأيام التي كنّ يخبزن فيها في الفرن الجماعي. وإذا استثنينا المخابز، فإن سكان المخيم، في معظمهم، لا يستطيعون تناول الطعام خارج المنزل، وإذا ما أرادوا الترفيه عن أنفسهم، فإنهم يقومون بنزهة إلى مدينة صور، في محاذاة الشاطئ في منطقة البوليفار، والتي تبعد مسافة ١٥ دقيقة بالسيارة. ومن ناحية أخرى، ثمة عدد لا بأس به من المتاجر في المخيم. وبما أن أصحاب هذه



أسلاك كهربائية متشابكة في الأعلى.

خطر تعرض السكان للصعقات الكهربائية. يتزود مخيم برج الشمالي بالطاقة الكهربائية من ١٢ محطة تحويل، وانقطاع التيار الكهربائي فيه أمر شائع الحدوث، ويتزايد عند هطول المطر. وتجري لجنة الخدمات في المخيم مفاوضات مع السلطات اللبنانية لحل هذه المشكلة، إلا إن اللجنة تواجه صعوبات في الضغط على السلطات اللبنانية لتغيير هذا الوضع، وخصوصاً أن السكان لا يدفعون فواتير الكهرباء منذ عدة أعوام (لا يُعرف متى توقف المخيم عن دفع فواتير الكهرباء، لكن يبدو أن أحداً لم يأت إليه لتحصيل أثمان الكهرباء منذ ١٠ - ١٥ عاماً على الأقل). وقد زاد تدفق السوريين على المخيم من استهلاك الطاقة الكهربائية، في الوقت الذي يعاني نقصاً في التزويد. الأسلاك الكهربائية الواهنة والمكشوفة يمكن أن تتسبب بإشعال الحرائق، وغالباً ما لا تستطيع سيارات الإطفاء والطوارئ الوصول إلى شوارع وأزقة المخيم الضيقة. ففي أيار / مايو ٢٠١٥ احترق منزل عند أطراف المخيم، ولم يتمكن رجال الإطفاء اللبنانيون من الوصول إليه إلا من خلف مدرسة الأونروا. وكان هذا الحريق بمثابة صيحة إنذار للجنة خدمات المخيم التي أدركت أنها لا تستطيع المراهنة على الحظ في المستقبل، فشكّلت خدمة إطفاء محلية من المتطوعين، يشرف عليها حراس ومراقبون ينتشرون في مختلف أرجاء المخيم. وقام رجال الإطفاء المحليون بتحويل عربة تسوّق إلى سيارة إطفاء، وذلك بتحميلها بطفايات حريق يدوية شرعوا يوزعونها على المنازل.

المتاجر لا يدفعون الضرائب، فإنهم يبيعون بأسعار أقل من أسعار المتاجر في البلدة المجاورة، فالمخيمات "مناطق جغرافية استثنائية" خارج القانون (يعبر بعض الباحثين عن هذا الوضع بالقول: "إن تعليق القانون لا يُعتبر غير قانوني، بل إنه غير ملحوظ قانونياً")^{١٦}. لا تدخل الشرطة المحلية مخيم برج الشمالي، فالمجتمع المحلي يحافظ بشكل جماعي على النظام العام فيه، بينما يعمل الكبار على حل النزاعات العنيفة. وفي تلك الأيام التي لم يكن يتطلب الدخول إلى المخيم تصريح دخول، كان الغرباء من خارج المخيم يأتون إليه طلباً للبضائع الرخيصة والمهربة، كما أنه يمكن شراء التبغ والسجائر من المخيم بكل سهولة، على الرغم من أن متاجر قليلة هي التي يُسمح لها ببيع منتجات التبغ. وقبل صعود التيار الإسلامي المحافظ مؤخراً، كان يمكن حتى شراء الكحول من المخيم بسعر أقل، أمّا الآن فقد توقفت هذه التجارة، أو باتت تمارس في الخفاء.

المرافق

إذا ما نظرت إلى الأعلى فسترى شبكة عشوائية من الأسلاك الكهربائية الحمراء والخضراء والزرقاء، تمتد في كل اتجاه، ومثل هذه الشبكات يكون في بعض مناطق المخيم كثيفاً جداً، بحيث يبدو مثل خيمة تظلل الشوارع. وبصورة لا تكاد تصدق، فإن هذه الأسلاك الكهربائية ظلت تتداخل مع أنابيب المياه البلاستيكية حتى سنة ٢٠٠٦ عندما عملت المفوضية الأوروبية على تركيب نظام توزيع جديد للمياه في المخيم، أدى إلى تقليل



ملصقات في الشوارع تحمل صور شهداء سقطوا في المعارك.



ملصقات في الشوارع تحمل صور قادة سياسيين ومقاتلين.

رموز ومناطق

تسطيع رؤية أثر المعارك والحروب السابقة في جميع أرجاء المخيم، وكذلك آثار الرصاص والشظايا على البنايات، بينما تغطي الجدران وألواح الإعلانات ملصقات لقادة سياسيين وشهداء. فالعديد من الملصقات يُظهر صور شباب يحملون البنادق، فضلاً عن شعارات تحمل معاني الانتماء والولاء، وهي شعارات وملصقات تحدد مناطق الفصائل السياسية.^{١٧} ولا تزال "فتح" تسيطر على المخيم، وفي إمكانك حتى اليوم، رؤية صور لياسر عرفات: ملصقات سابقة للقائد الفلسطيني عندما كان شاباً بنظارته الأنيقة، وجداريات له كرئيس للسلطة الفلسطينية وهو متقدم في السن. وترى في المخيم أيضاً أعلام حزب الله الصفراء، وملصقات لقادة "حماس"، كما ظهرت لاحقاً مخاوف من احتمال تغلغل "داعش" في المخيم لتهدد التوازن الاجتماعي فيه، إذ يقطن المخيم بعض الأسر الشيعية، وأسرة مسيحية واحدة.

لكن صور المناضلين ليست الرموز الوحيدة، أو حتى الأكثر أهمية في المخيم، بل إن المنظمات الإنسانية توقع عملها دائماً. فعندما تقترب من خزان المياه أو العيادة الطبية أو المدرسة، ترى لافتات زرقاء اللون تحمل شعار إكليل الزيتون والكرة الأرضية، والذي يمثل شعار الأمم المتحدة. فعلى مدى أكثر من ٦٠ عاماً تقوم الأنوروا بدور الدولة البديلة للاجئين الفلسطينيين، وتقدم لهم الرعاية والخدمات الأساسية والاجتماعية، والاعتراف القانوني بوضعهم الفريد.^{١٨} وتشهد لافتات أخرى على تمويل المفوضية الأوروبية لمشاريع البنية التحتية الجديدة

لشبكة تصريف المجاري ومياه الأمطار، ويتم تسجيل مساهمة كل طرف بالتفصيل: الاتحاد الأوروبي؛ الدنمارك؛ اليابان؛ ألمانيا؛ السويد؛ إسبانيا. كما يمكنك أن تبحث عن اللافتات التي نشرتها المنظمة النرويجية التي مولت مختبر الحاسوب في مؤسسة بيت أطفال الصمود، والمنظمة اليابانية التي مولت عيادة الأسنان، والمنظمة الإسبانية التي فتحت مركز تدريب مهني، لتدريب اللاجئين الشباب على أعمال الكهرباء والسباكة والحلاقة. وهذه اللافتات تدل على أن المخيم رمز لـ "فضاء متناقض"،^{١٩} فالسياسات الإنسانية تمكن القادة من التعامل مع حالة اللجوء كوضع "موقت دائم"، وبالتالي، إدامة حالة المخيم بشكل غير رسمي، في حين أن استثماراتهم في البنية التحتية وتحسين المساكن في المخيم، تجعله مخيماً دائماً، في الواقع.

عالمية المخيم

يُعتبر الصيف موسماً مزدحماً في مخيم برج الشمالي، إذ يعود المغتربون للزيارة، وأحياناً للزواج من أبناء وبنات مجتمعهم (وقد تكون هذه مشكلة في هذا المجتمع المتجانس نسبياً، والذي يعاني نسبة مرتفعة من مرض التلاسيميا، وهو اضطراب وراثي في الدم). ويخطط سكان المخيم لإقامة احتفالاتهم مع عودة المغتربين لزيارة الوطن، وإذا كنت في المخيم في الصيف، فإنك ستشاهد حفلات ترتفع فيها أصوات الموسيقى الصاخبة، ونساء بملابس زاهية، وعلى الأقل، بعض حفلات الزفاف المترفة. في مثل هذه الأوقات، يبدو المخيم مثل مدينة عالمية تستطيع أن تلتقي فيها بمغتربين عائدين من ألمانيا والسويد،



مشهد لمخيم برج الشمالي من الجو، التَّقط بواسطة بالون مملوء بغاز الهيليوم.



بالونات ترسم خريطة للمخيم.

مكان آخر، والشبان يرتدون قمصاناً عليها
صور تشي غيفارا، بينما يشاهد أهاليهم
المسلسلات التلفزيونية التركية. هذا كله تذكير
دائم بأن المخيم، على الرغم من حدوده
الضيقة، مفتوح على العالم.^{٢١} ■

وبمتطوعين من كندا والولايات المتحدة،
وممثلين عن الدول المانحة، وموظفين دوليين
من وكالات الإغاثة. وقد ترى أيضاً فرقة من
الشباب العازفين على القرب، وهم يتدربون
في الشوارع برفقة مدربيهم الإيطاليين!^{٢٢}
الفيس بوك وتويتر منتشران هنا كما في أي

المصادر

- ١ United Nations High Commissioner for Refugees (UNHCR) Press Release (June 18, 2015), "Worldwide Displacement Hits All-Time High as War and Persecution Increase: One in Every 122 Humans is Now Either a Refugee, Internally Displaced, or Seeking Asylum", <http://www.unhcr.org/558193896.html>
- ٢ بتاريخ ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠١٦، كان هناك ١,٠٦٧,٧٨٥ لاجئاً سورياً مسجلون في لبنان، وفقاً للمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (مع العلم بأن المفوضية علّقت مؤقتاً أي تسجيل جديد للاجئين في أيار/مايو ٢٠١٥، بناءً على تعليمات من الحكومة اللبنانية). وبتاريخ ١ تموز/يوليو ٢٠١٤، كان هناك نحو ٤٥٠,٠٠٠ لاجئ مسجلون لدى الأونروا في لبنان، وكان ٥٣٪ منهم يعيشون في ١٢ مخيماً رسمياً للاجئين الفلسطينيين.
- ٣ يقول عالم الجغرافيا رومولا سانيل: "هناك صمت واضح في الدراسات الحضرية بشأن مسألة اللاجئين. [...] إذ تقتصر المناقشات إلى حد كبير في الدوائر السياسية بشأن اللاجئين على مسألة الإغاثة الإنسانية، وظروف المعيشة في المخيمات، ودور [وكالات الأمم المتحدة]. [...] وبينما يبدو أن هناك إجماعاً بارزاً على أن المساحات التي يقطنها اللاجئون أصبحت بشكل متزايد أحياء عشوائية فقيرة، أو تحاكي المدن، فإن الدراسات الحضرية الانتقادية التي تستجوب بعناية العلاقة بين الأحياء الفقيرة والتحضر مفقودة بشكل مأسوي في هذه الحالة." انظر:
- Romola Sanyal, "Urbanizing Refuge: Interrogating Spaces of Displacement", *International Journal of Urban and Regional Research*, vol. 38, no. 2 (March 2014), pp. 558-572, <http://onlinelibrary.wiley.com/doi/10.1111/1468-2427.12020/epdf>
- ٤ كتب ديفيد ريمنيك عن مخيم الزعتري للاجئين في الأردن، مقالة رائعة. انظر:
- David Remnick, "City of the Lost: In the World's Second-Largest Refugee Camp, Syrians Find That It's Not Easy to Flee the War", *The New Yorker*, August 26, 2013, <https://www.newyorker.com/magazine/2013/08/26/city-of-the-lost>
- ومن أبرز المقالات الحديثة عن اللاجئين:
- Talia Radford, "Refugee Camps are the 'Cities of Tomorrow', Says Humanitarian-Aid Expert", *Dezeen*, November 23, 2015, <https://www.dezeen.com/2015/11/23/refugee-camps-cities-of-tomorrow-killian-kleinschmidt-interview-humanitarian-aid-expert/>
- Elizabeth Dunn, "The Failure of Refugee Camps", *Boston Review*, September 28, 2015, <https://bostonreview.net/editors-picks-world/elizabeth-dunn-failure-refugee-camps>
- ٥ لمزيد من المعلومات عن مصطلح "المخيم المدينة"، انظر:
- Michel Agier, "Between War and City: Towards an Urban Anthropology of Refugee Camps", *Ethnography*, vol. 3, no. 3 (September 2002), pp. 317-341, <http://faculty.washington.edu/plape/citiesaut11/readings/Agier%20BETWEEN.pdf>

- ولمزيد من المعلومات عن سكان مخيم برج الشمالي، انظر:
 Fiorella Larissa Erni, "Tired of Being a Refugee: Young Palestinians in Lebanon",
eCahiers de l'Institut ePapers, no. 17 (Geneva: The Graduate Institute, 2013).
 وانظر أيضاً موقع "الأونروا"، في الرابط الإلكتروني التالي:
<https://tinyurl.com/ycd9vbgb>
 وصل اللاجئون في سنة ١٩٤٨، ووُزِعوا على عدة أماكن في تلك المنطقة. أما المخيم فأُنشِئ في سنة ١٩٥٥.
- ٦ Charlie Hailey, *Camps: A Guide to 21st Century Space* (Cambridge: MIT Press, 2009).
 ٧ Ananya Roy, "Urban Informality: Toward an Epistemology of Planning", *Journal of the American Planning Association*, vol. 71, no. 2 (Spring 2005), pp. 147-158, <https://pdfs.semanticscholar.org/9889/efd05dae7e1322bd082a4cb431369389f33d.pdf>
 جورجيو أغامبين، مقتبس من: Hailey, op.cit.
- ٨
 ٩ لمزيد من المعلومات عن الخريطة كرمز يحتفل به كل من الإسرائيليين والفلسطينيين، انظر:
 Yair Wallach, "Trapped in Mirror-Images: The Rhetoric of Maps in Israel/Palestine", *Political Geography*, vol. 30, no. 7 (September 2011), pp. 358-369.
- ١٠ Rosemary Sayigh, *Palestinians: From Peasants to Revolutionaries* (London: Zed Books, 1997); Idem., *Too Many Enemies: The Palestinian Experience in Lebanon* (London: Zed Books, 1994).
 انظر: ١١
- Janet L. Abu-Lughod, "The Islamic City: Historic Myth, Islamic Essence, and Contemporary Relevance", *International Journal of Middle East Studies*, vol. 19, no. 2 (November 1987), 155-176.
- ١٢ Hassan Ismae'l Sheikh, "An Urbanity of Exile: Palestinian Refugee Camps", *A10: New European Architecture*, no. 27 (May-June 2009), pp. 60-62.
 Ibid. ١٣
- ١٤ مخيم برج الشمالي ليس فريداً من نوعه في هذا المجال، فنصف اللاجئين في العالم هم من الأطفال.
 UNHCR, "Worldwide Displacement...", op cit. انظر:
- ١٥ توضيح: شاركت شخصياً في هذه الجهود من خلال مبادرة "تخضير مخيم برج الشمالي" (Greening Bourj Al Shamali) [وهي مبادرة مشتركة بين منظمات مجتمع مدني من المخيم ومن أوروبا، هدفها تحسين ظروف العيش في المخيم. ولمزيد عن هذه المبادرة، يمكن زيارة موقع المبادرة الإلكتروني في الرابط التالي: <http://bourjalshamali.org/>].
- ١٦ Bülent Diken and Carsten Bagge Laustsen, *The Culture of Exception: Sociology Facing the Camp* (London and New York: Routledge, 2005).
- ١٧ Zeina Maasri, *Off the Wall: Political Posters of the Lebanese Civil War* (New York: I.B. Tauris, 2009).
- ١٨ Sanyal, op.cit., paraphrasing Randa Farah, "UNRWA: Through the Eyes of Its

Refugee Employees in Jordan”, *Refugee Survey Quarterly*, vol. 28, no. 2-3 (January 2009), pp. 389-411.

Michel Agier, *Managing the Undesirables: Refugee Camps and Humanitarian Government* (Cambridge: Polity Press, 2011). ١٩

Melinda Newman, “Band Practice for Refugees”, *The Christian Science Monitor*, July 15, 2010. ٢٠

انظر أيضاً صفحة الفرقة في الفايس بوك:

https://business.facebook.com/bands4refugees/?ref=page_internal

قراءات إضافية: ٢١

Giorgio Agamben, *Homo Sacer: Sovereign Power and Bare Life* (Stanford: Stanford University Press, 1998); Idem., “What is a Camp?”, in *Means without End: Notes on Politics*, translated by Vincenzo Binetti and Cesare Casarino (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2000); Michel Agier, “Corridors of Exile: A Worldwide Web of Camps”, *Metropolitiques*, November 25, 2011; Sari Hanafi, “Palestinian Refugee Camps in Lebanon as a Space of Exception”, *REVUE Asylon(s)*, no. 5 (September 2008); Manuel Herz, ed., *From Camp to City: Refugee Camps of the Western Sahara* (Baden: Lars Mueller, 2013); Julie Peteet, *Landscape of Hope and Despair: Palestinian Refugee Camps* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2005); Alessandro Petti, Sandi Hilal, and Eyal Weizman, *Architecture after Revolution* (Berlin: Sternberg Press, 2014); Romola Sanyal, “Squatting in Camps: Building and Insurgency in Spaces of Refuge”, *Urban Studies*, vol. 48, no. 5 (April 2011), pp. 877-890; Eyal Weizman, *The Least of All Possible Evils: Humanitarian Violence from Arendt to Gaza* (London: Verso, 2011); Louis Wirth, “Urbanism as a Way of Life”, in *Classic Essays on the Culture of Cities*, edited by Richard Sennett (New Jersey: Prentice-Hall, 1969).